اليسر

قصة بقلم نايف شرف الدين

يا الله .. يا ميسر .. يا مقسم الارزاق على العباد .. افتح لي باب الرزق هذا اليوم .. لا تجعلني اعود ، كالايام الخوالي ، صفر اليدين الى زوجتي واولادي .

انك عالم بالحال يا ربي .. لم يبق عندنا ما يعول عليه في سد اودنا .. لقد بعنا ، بالامس القريب ، الحلة النحاسية الكبيرة .. وهي اخر ما تبقى لنا من ممتلكات .. لقد اصبحنا حفاة عراة .. الامن رحمتك فلا تخيب رجاءنا ، يا ارحم الراحمين .

لقد تعبت يا ربي .. واوشك اليأس ان يقضي على بقية من امل في نفسي .

منذ اشهر وانا على هذا الحال : ادور على الشركات والدوائر والمؤسسات ، حكومية واهلية ، طلبا للعمل ، فلا القى من المسؤولين فيها الا الوعود الكاذبة حينا ، والصدود الجاف حينا اخر ..

في هذا اليوم سيتقرر مصير عملي .. وعلى بركتك ، يا ربي ، ساغادر البيت .. اين انتم ؟ تعالي يا ام اسعد .. تعالوا يا اولادي جميعكم .. حسنا ! اني ذاهب .. ادعي لي بالتوفيق يا ام اسعد .. وانتم ، ايضا ، يا اولادي .. ان الله يستجيب دائما ،لدعاء الصغار .. اوتبكون لا ، لا . لا تبكوا .. وانت كذلك يا ام اسعد ، كفكفي دمعك .. وصلي.. صلي لله ان يسهل امري .. دعي الاولاد ، ايضا يشاركوك الصلاة .. اني ذاهب . استودعكم الله . لا تنسي الصلاة يا ام اسعد .. وانتم يا صغاري .. في امان الله .

ايه ما اروع هذا النهار ! ما ابدع شمسه وهواءه ! الطبيعة كلها تتحلى بالجمال والهدوء ! لم ار في حياتي كلها يوما بهذا السحر !

ليس هذا كله الا تفسيرا للحلم الذي رايته في نومي ليلة امس.. لقد اصابت زوجتي في تفسيره .. قالت : « سيكون يومك جميلا وموفقا يا ابا اسعد .. ان النسر الذي رايته محلقا في سماء صافية مشبعة بشعاع الشمس ودفئها ليس هو الا فال خير ..

انه بشير انتقال من حال الى اخر .. من حضيض الى حالق .. ابشر بالخير يا ابا اسعد .. »

من المؤكد ان الخير سياتيني هذا اليوم ..

لقد قطع لي ، مدير شركة المواصلات ، وعدا اكيدا بالحاقي،كعامل في ورشة صيانة السيارات .

كم كنت كريما ، يا ربي ، عندما سقتني بهديك الى ذلك الانسان النبيل .. الذي لم ار له وجها قبل يوم امس .. فرق قلبه لحالي ، واعاد بعض الرجاء الى قلبي .

ان امثال هذا الانسان نادرون في هذه الايام ..

ليس من مخلوق يؤدي لك خدمة او معروفا دون مقابل .. كل شيء له ثمن .. وخاصة الوظيفة ..

لو كنت املك مبلغا من المال لتوظفت منذ زمان .. مثل جارنا ابو علي .. دفع الف ليرة لنائب منطقتنا وتوظف ،راسا ، بالاشغال العامة ..

عجيب امر هؤلاء النواب .. قبل الانتخابات النيابية يزورونك في بيتك .. ويشربون قهوتك .. ويعرضون عليك خدماتهم .. وبعد ان تنتخبهم ويصبحوا اعضاء مجلس الامة يتناسونك .. واذا ماذهبت الى بيوتهم لتذكرهم بوعودهم راوغوا بلباقة .. وتملصوا منك .. ولا يسعك عندها الا ان تدفع لهم .. اذا كنت قادرا على ان تدفع .. فتحصل على طلبك ..

ومثلهم ايضا ، الوزراء المحترمون !

متى يا ربي ، تاتي حكومة صالحة تسهر على مصالح البلد والناس؟

هه .. هذا ابو فؤاد .. ما عساه فعل بالعمل هو الاخر ؟ لاعرج عليه في الدكان واساله .

ابو فؤاد .. ابو فؤاد .. مرحبا . طمني ، ماذا فعلت بامر الوظيفة ؟ ماذا ؟ لم يجد معك شيء حتى الان ؟ وعدوك الى الاسبوع القادم ؟ لكن .. هل هذا وعد اكيد ؟ لا تعرف بالتاكيد . وتقول انك مللت هذه الوعود .. وقرفت منها ايضا ؟ ماذا ؟ تقول انك سوف تسافر الى الخارج ؟ تريد ان تتغرب يا ابو فؤاد ؟ وزوجتك واولادك .. الى من تكل امرهم ؟ الى اخيك تقول .. ريثما يفرجها الله عليك ؟ كان الله في عون اخيك .. انه صاحب عائلة كبيرة هو الاخر .. ومعاشه ضئيل جدا .. تقول انك عزمت على السفر اذا اخلوا بوعدهم معك ؟ وهذا قرارك النهائي ؟ وتقول انك مصمم على ذلك .. مهما كلف الامر ؟ اذن دعني ارك قبل ان تسافر .. لا تنس .. يفرجها الله يا ابو فؤاد ..

تسالني ماذا جد بشاني انا ؟ اني ذاهب الى شركة المواصلات لقد وعدني مديرها امس ، بوظيفة في ورشة الصيانة ، لا ، لا .. اظنه كان صادقا في وعده .. بالتاكيد ؟ نعم ، نعم . بالتاكيد يا ابو فؤاد .. لن انسى ذلك .. سوف اخبرك بما يجد معي ، في هذه الليلة ان شاء الله . والان استودعك الله . اسمع ! اعد النظر بمسالة السفر .. ان الغربة صعبة يا ابو فؤاد . الى اللقاء .

يا الله قنا شر الغربة . انها تفرق الشمل ، وتهين النفس ، وتفقر مسقط الراس ..

عشرات الالوف من ابناء وطننا مشتتون في جميع ارجاء العالم..

هل سيكتب لهم ان يروا تراب وطنهم ثانية ؟

العلم عند الله . كثير منهم قد مات .. وما زال اهلهم ينتظرونهم ويحسبونهم احياء يرزقون .. وكثير منهم لن يعود .. سوف يهبون دمهم ولحمهم وعرقهم لبلد اخر .. لبلد غريب ، اجنبي .. اعوذ بالله من شر الغربة .

لاوسع الخطى .

لا ريب ان المدير قد وصل الان الى مكتبه .. اطال الله عمره .. انه رمز للانسانية والعون كيف يمكن ان يكافا رجل مثله ؟

اني اود من كل قلبي ان ارد له بعض هذا الجميل .. ولكن كيف وباية طريقة ؟

والله فكرة رائعة يا ابا اسعد .. سوف ادع ام اسعد تذهب لمقابلة زوجته .. وتعرض عليها خدماتها ..

ان زوجتي تجيد اعمال الابرة وحياكة الصوف اجادة تامة .. ان بامكانها ان تقوم باعمال يدوية جميلة .. تسر لها زوجة المدير جدا ..

ما اجمل ان يفكر المرء تفكيرا صائبا ..

ان شيئا من الشعور بالابتهاج والامل يفتح مغاليق الراس !

آه .. لعن الله الفقر ! انه يطمس الذهن .. ويعصر المعدة .. سوف اطلع ام اسعد على فكرتي هذه ، عند المساء ، بعد رجوعي ويذل النفس ..

من العمل .. اني متاكد بانها سوف تسر جدا لها .. وتذهب في الغداة لمقابلة زوجة المدير .

مسكينة ام اسعد ! لقد تحملت الكثير .. وصبرت على مر الحياة أني مقصر بحقها ، طول عمري وانا مقصر بحقها . ومع ذلك فهي صابرة .. وتحبني من اعماق فؤادها .

انها شاركتني بالعمر اكثر مما شاركتني بالحلو .

يفرجها الله يا ام اسعد . الدنيا هكذا .. يوم عليك .. ويوم معك ابشري ، يا ام اسعد . انا لا اريد اي قرش من اول معاش اتقاضاه .. لا اريد شراء اي غرض لي .. بالرغم من ان ثيابي عملت بها يد البلى منذ زمان .. سوف اسلمك المبلغ كله . انك بحاجة ملحة الى ثياب . لقد اصبحت في المدة الاخيرة شبه عارية .. وكذلك الاولاد ، ثيابهم ممزقة ، وارجلهم حافية .. انكم ، ايضا بحاجة الى غذاء .. سادعكم تاكلون اللحم مرتين او ثلاث مرات في الشهر .. لقد نسينا طعم اللحم والله يا ام اسعد .. نحن منذ اشهر طويلة لا نعرف الا طعم الذرة .

ان اشياء كثيرة تنقصنا .. ساعوضكم قدر المستطاع عما فاتكم.. مضى الكثير ولم يبق الا القليل .. كلها بضعة ايام وتتعدل الامور .. ويقول المثل : ما بعد الضيق الا الفرج .. الله ما خلق دودة في الصخرة وقطع بها .

قري عينا يا ام اسعد . لا تفكري او تشغلي بالك بولادتك بعد الان . سوف نقتطع ، من مرتبي ، بعض الدراهم ، خلال هذين الشهرين، لتجهزي ثياب القادم الجديد .. وليكون لديك كل ما تحتاجينه طول فترة رقادك في الفراش ..

لا ريب ان الله يسر امري ببركة القادم الجديد والموجود في احشائك الان .. يأتي الطفل ويأتي رزقه معه .. كم انت كريم يا رب العباد !

اماني كثيرة سوف تتحقق . لن نعيش في جو الفقر المدفع بعد اليوم .. سيطرا بعض التغيير الرائع على حياتنا كلها : يزول شبح الجوع من انفسنا .. تعمر القدر بلون من الوان الطعام كل يوم .. تظهر حلل جديدة على اجسامنا .. نسترد شيئا من احترام الناس لنا .. اسعد يذهب الى المدرسة .. مثل علي ابن جارنا موظف الاشغال ..

منذ زمان وانا افكر بادخال اسعد المدرسة . انه ابن سبع سنوات الان . لن يلحق بركب اترابه في الدراسة ما لم يدخل المدرسة اليوم.

اريده ان يحصل من العلم نصيبا كبيرا .. اريده رجلا اجتماعيا مرموقا في المستقبل .. لا اريده ان يضيع في الحياة كما ضعت انا .. لا شيء كالعلم يؤمن حياة الفقير ..

سوف يذهب من الغد الى المدرسة . وفي السنة القادمة ، انشاء الله ، تلحق به اخته .. وبعدها يلحق اخوهما الثالث .. فالرابع .. فالخامس .. فالذي في احشاء امه الان .. ان قدر له ان يعيش .

سأجد في عملي من اجل تحقيق هذه الامنية الكبيرة . ساقوم باعمال اضافية في الشركة ، كل يوم . هذه الساعات الاضافية لن نمس دراهمها ابدا . انها رصيد مقدس لبناء مستقبل الاولاد .

هذا واجب ساقوم به انا وام اسعد ، ان شاء الله ، احسن قيام.

آه .. ماذا ارى ؟ يا للصبي المسكين ! انه لا يتجاوز السنوات الست ! لم يتركه اهله يستجدي الناس في الشوارع ؟

لا ريب انهم في فاقة شديدة .. كثير من الناس في فاقة وحرمان هذه الايام .

ان الكثير من امثال هذا الصبي منتشرون في كل ارجاء هذه المدينة الكبيرة ، يبتلعهم شارع ويلفظهم شارع ، عشرات المرات كل يوم .

متى تفهم الحكومة ان لهؤلاء البؤساء حقا عليها ؟

متى يعم النور مدينة الظلام هذه ؟

ماذا تقول يا صغيري ؟ تريد بعض الدراهم ؟ اقسم لك باني خال حتى من القرش ! انتظر ! ما اسمك ؟ ماذا ؟ ارفع صوتك قليلا . عبد الله ؟ عبد الله ماذا ؟ تقول انك لا تعرف ؟ واسمك عبد الله فقط ؟ اقترب ، اقترب لا تخف . هل تعرف في اي يوم نحن ؟ لا تعرف ؟ ! كل الايام عندك سواء ؟ معك حق يا بني ، ومع ذلك ساقول لك في اي يوم نحن .. اليوم هو الثلاثاء ، اتفهم ؟ حسنا ! انك من الاذكياء على مايبدو اسمع ! يوم الاحد القادم ، في مثل هذا الوقت .. انتظرني هنا .. بعد خمسة ايام بالضبط ، انك تستطيع العد اليس كذلك ؟ هات يدك . واحد .. اثنين .. ثلاثة .. اربعة .. خمسة .. اعد العد كما علمتك .. جميل ، جميل جدا ..

ماذا ؟ تسالني لماذا اريد ان اراك يوم الاحد ؟ سوف اعطيك شيئا .. ما هو ؟ تسال ما هو هذا الشيء ؟ والله لست ادري الان ما هو .. او ماذا سيكون .. المهم ان تنتظرني هنا لا تنس . سوف اعرفك بابني اسعد . نعم . انه من سنك او اكبر بقليل .. ماذا ؟ تسالني ما اذا كان يملك ولدي اسعد الكثير من لعب الاطفال ؟ اه .. انه ... في الحقيقة ... انه ... انه ... سوف اخبرك فيما بعد .

والان مع السلامة يا بني . اني مستعجل ؟ نعم . اني مستعجل.. مستعجل جدا . الى اللقاء . لا تنس يوم الاحد . هنا هنا في هذا المكان .. في امان الله يا صغيري .

واسفاه على البائس الصغير ! انه قطع قلبي بمظهره الحزين .لقد شحذه الفقر كما يشحذ حجر صلد حد سكين .

العجيب انه لا يعرف الى اية عائلة ينتمي ! انساه الجوع المزمن كل شيء . حتى انه لا يدري في اي يوم من ايام الاسبوع هو !

هذه مهزلة ومأساة بشعة ! وهي واحدة من مهازل ومآس بشعة كثيرة يدور رحاها هذه الايام ! كان الله في العون . كان الله في العون.

هه ! لقد وصلت ها هو المبنى ! لم اره من قبل بهذا الجمال قط ان قلبي يرتعش لمنظره البديع سيكون لي شان كبير معك ايها المبنى ! سوف نتقابل كثيرا من الان فصاعدا .. ساعطيك عرق جسمي .. وتعطيني شريان الحياة ..

تبادل عادل ! عرق بمال !

مادتان من اخطر مواد الحياة .. بدونهما لا يمكن ان تدور عجلة او تمتلىء معدة !

اظن انه يجب ان ادخل من هنا .. ثم اصعد الدرج الى الطابق الثالث .. يخيل الي اني اعرف هذا المبنى منذ زمن بعيد !

اعتقد ذلك هو فراش المدير .. لاقترب منه واساله عن سيادته.. انه يبدو واجما .. بل حزينا .. ما لي وله ! علي ان اسأله ان يوصل اسمي الى سكرتير المدير .. وهذا الاخير يتولى ادخالي على سيادة المدير .

لكن ... هنا تجري حركة غير عادية !

ارى الموظفين يتهامسون بكآبة ! لكن .. ما لي ولهم .. ليتهامسوا بالشكل الذي يعجبهم .

صباح الخير يا اخي .. مالك لا تجيب ؟ ماذا اريد ؟ هل اتى سيادة المدير لقد قال لي بالامس ... ماذا ؟ ماذا تقول يا رجل ؟! ماذا تقول بحق السماء ؟! قل شيئا غير هذا .. هذه هي الحقيقة ؟ اية حقيقة ؟ بل اية مصيبة ..؟

تقول منذ ساعة حدث الحادث ؟ هنا في المكتب ؟ مات المدير بالسكتة القلبية ؟! هل انت متاكد ؟

مستحيل .. مستحيل .. لا يمكن ان يحدث هذا .. اذن فالنسر الذي رايته في منامي هو حظي الذي اختفى ، هو بارقة الامل التي تالقت في سمائي ثم انطفات فجاة . ولكن لم حدث هذا اليوم بالذات ؟ لماذا اليوم بالذات ؟! لماذا اليوم بالذات ؟

نايف شرف الدين